الجزء الخامس

المعلم

السنة الخامسة

مجلة اجتماعية علمية تهذيبية تاريخية

نيويورك — ١٥ ايلول (سبتمبر) سنة ١٩٠٦ ٢٧ رجب سنة ١٣٢٤

صوت من بعيد

اذا تصفحنا الصحف الاوروبية والاميركية . واصغينا الى مجالس الشورى وكلام الخطباء فيها . وقرأنا اخبار مصر في صحفها . خيل لنا ان مصر قائمة قاعدة في هذا الوقت وافريقيا وآسيا وراءها تشدّان ازرها . فنتساءل قائلين : ماذا اصاب الحبيبة بعد فراقنا لها . ولكن من عاش في مصر دهرًا طويلاً وخبر ما ظهر وما بطن من احوالها علم ان هذه الضوضاء ناشئة عن تجسيم الكتاب الاوروبيين والمصريين لحوادثها جريًا على العادة

﴿ كتاب من مصر ﴾ وقد كان هذا معتقدنا واذا بالبريد المصري يحمل الينا كتاب صديق معروف في مصر بكونه دكتورًا وموَّلفًا . واليك شيئًا من هذا الكتاب ننشره بلا حذف ولا تبديل

« حالة مصر عدم . وندم . تعصب في الدين . وكره للاجانب قتال . واستبداد في المحتلين . ورشوة في العمال . ضغط على القضا . وفلاح مقيم على الهوان . وادارة تدار بالقدر والقضا . وصحافي بعده الطوفان — كرومر كمنايا ابن ابي سلمى من يصبه لا يسلم . ومن اخطاه يهرم . دفعه الخرق في السياسة لامل ان يجني من الشوك عنبًا . وقاده الى ان يفتل من العنكبوت طنبًا . فاذلّ من القوم زعيمهم فاهاج غضبه . وعزّز لئيمهم فرفع عليه عقبه .

ولي الامر تاجر والمؤتمر امير والعالم عندهم كافر والجاهل مشير. القاضي محابي والحاكم جابي. وعامل الترك يستر حركته النقص والاشتغال. وبعدم صرف الوزارة زاد الاعتلال . لا تسمع الا « المسلمون والرسول » والكل زعيم غير مسئول . هذا ما اتمه محمد عبده واسسه رياض. والآن الامير يعضده والحال في المخاض. فمصر اليوم ضد الحجاج بالامس . فان انجبت كان ولا شك بغل علينا عليقه ولنا الرفس. وان اجهضت فربما يعتري اهل الفتن التعب ويزول عنا النحس. فنحن بين شافونين . اتخذنا الوطنيُّ دخلاء مزاحمين . واعتبرنا المحلل جواسيس عليه مأجورين . فاصبحنا بفضل جرائدنا الكل اعدانا . وصح فينا « ما بين حانا ومانا » . . .

ولم ننشر هذا (الكتاب الشعري) لموافقتنا على ما ورد فيه فانه لا شيء ادعى الى المبالغة من الشعر بل غرضنا من نشره اولاً ان ندل على حالة النفوس اليوم في مصر وثانياً ان ندخل منه الى موضوع نريد الكلام فيه لانه من اهم المواضيع للشرق وابنائه . واذا كانت الجامعة قد بعدت عن الشرق فان قلبها لا يزال فيه. وهي انما تُنشر له

المواضيع الثلاثة

كلامنا في هذا الفصل عن ثلاثة مواضيع اشتغلت بها الصحف الاوروبية والمصرية في هذا الصيف

(الاول) هل في مصر تعصب

(الثاني) هل في مصر حزب وطني وله زعيم

(الثالث) هل الحركة الاسلامية موجودة في افريقيا وآسيا ومركزها مصر

اما الموضوع الاول فقد بحثت فيه الجرائد المصرية بعد قول وزير خارجية انكلترا في احدى خطبه ان حادثة دنشواي نشأت عن تعصب ديني بعد حادثة طابه (١) فلم تبقَ

(١) حادثة طابه هي الخلاف الذي وقع بين الدولة العثمانية وحكومة مصر بشأن الحدود المصرية ولما فازت حكومة مصر بما طلبته بمساعدة انكلترا تهيجت الافكار في مصر فتعرض بعض الاهالي في قرية دنشواي لضباط من الانكليز كانوا يصطادون الحمام فقتلوا احدهم وجرحوا رفاقه . وقد حوكم المتهمون في محكمة عسكرية مخصوصة فحكم على بعضهم بالشنق وعلى بعضهم بالسجن وبرىء بعضهم. اما الاهالي فيقولون ان الضباط هم الذين اعتدوا عليهم لانهم كانوا يصيدون حمامهم فضلاً عن ان النار اضطرمت في احدى عششهم من رصاص البنادق فظنوا ان الضباط تعمدوا احراقها

جريدة في مصر الا ونفت عن مصر تهمة التعصب . واما الموضوع الثاني فقد بحثت فيه جرائد مصر بعد قول جرائد اوروبا ان « زعيم الحزب الوطني في مصر هو مصطفى باشا كامل صاحب جريدة اللواء » واما الموضوع الثالث فقد كان مجال اقلام اكثر الصحف الاوروبية المهمة كالطان والديبيا وغازت دي كولونيا والتيمس وذلك بعد قول السر ادوارد غراي ناظر خارجية انكلترا ان حادثة طابه في مصر اثارت افكار المسلمين ليس في مصر فقط بل في ما وراءها من الاقطار الاسلامية في افريقيا وآسيا . قالت تلك الصحف : وقد اصبحت مصر مركز تلك الحركة

هل في مصر تعصب

١

التعصب الجنسي

قبل ان ننظر في وجود التعصب وضره او فائدته يجب ان ننظر في ماهيته وحقيقته . فالتعصب في اللغة او الاعتصاب اجتماع الناس عصبة . و « تعصب لفلان » مال اليه و « على فلان » مال عليه . و « تعصب الرجل في دينه ومذهبه كان شديداً غيوراً فيهما ذاباً عنهما » فيدخل اذاً في ذلك نوعان من التعصب « التعصب الجنسي » و « التعصب الديني » ويظهر في هذا العصر ان التعصب الجنسي امر مستحسن مباح فان كل امة من الامم تعلم اليوم ابناءها في المدارس انها خير الامم واعظمها والغرض من ذلك اثارة حماستهم لوطنهم وزيادة وطنيتهم . ونحن لا نقول ان هذا الامر ممدوح ولكن هذا ما يقع اليوم في جميع العالم الذي يسمونه متمدناً . فالانكليزي يقول رافعاً رأسه انا انكليزي . والفرنسوي يقول بكبرياء انا فرنسوي . وانك لترى ابناء اصغر الامم الاوروبية والاميركية يفتخرون بجنسيتهم ويفضلونها على اكبر جنسية . وما ذلك الا نتيجة تربية العصبية . وقد عدّ المؤرخ ابن خلدون من المتقدمين مبداء « العصبية » في جملة المبادىء الفعالة في انشاء الممالك والامم وترقيتها والنهوض بالافراد

ويظهر ان قادة الامم وملوكها يبالغون احياناً في هذا المبدأ ويحولونه عن الغرض الذي وُضع من اجله وهو النفع العام اذ يستعملونه في نفعهم الخاص . مثلاً كأن يتخذوا « العصبية والوطنية » آلة يدوسون بها حقوق الناس في داخل امهم او حقوق الامم الأُخرى باثارة حروب عدوانية عليها . وكل من اجترأ من رعيتهم على ان يرفع صوته

بالشكوى أثاروا عليه من يتهمه « بخيانة الوطنية » ولذلك يتالف في داخل الامة حزب جديد يقف في وجه هذه المطامع . وقد ظهرت هذه الحالة باجلى مظاهرها في فرنسا في السنوات الاخيرة . فان حزب الناسيونالست الجامع بين اناس من انصار الملكية وخصوم الجمهورية من الجمهوريين انفسهم المستائين من بعض مبادئها يتخذ « مبدأ الوطنية » سلاحاً يخدم به مآربه . فاذا انتقد بعضهم بعض قواد الجيش او كان ممن ينتصرون لدريفوس في اثناء الحادثة او قال بتنقية كتب المدارس من اطراء المجازر البشرية التي يسمونها حروباً فانهم يحملون عليه حملة شعواء باسم الوطنية . فكان هذا « التمسك الغائي » بالوطنية تمسكاً لا يُقصد به الا خدمة حزب دون حزب داعياً الى رغبة الحزب المعارض لذاك الحزب في مبادئه ان يقول لهم : تعالوا معنا لننظر في مبدأ الوطنية نظر الناقد البصير كما نظرنا في كل مبدأ وكل تعليم . ثم وضعوا ان هناك وطنيتين . واحدة باطلة وهي التي مدارها على احتقار باقي الاوطان واتخاذ مبدا الوطنية سبيلاً لكتم المساوىء والاثام وتشجيع الظلم والظلام واثارة الحروب التي يخرج منها الغالب على الدوام شرًّا من المغلوب . ووطنية صحيحة وهي التي مدارها على الجد والعمل ضمن دائرة السلم والعقل لانماء مواهب الوطن وقواه دون اعتداء على احد او كراهة لاحد وبذلك تحبه باقي الاوطان وتتقرب منه بدل ان تنفر عنه

فانت ترى ان مبدا الوطنية شبيه بالمبدا الديني من حيث انه يرتقي بارتقاء الشخص الآخذ به . وبعبارة اخرى نقول ان « التعصب الجنسي » اذا كان المراد به « ميل الانسان الى بني جنسه » والسعي في نفعهم على قدر طاقته فلا غبار عليه . ولكن اذا كان المراد به كراهة باقي الاجناس والامم فهو تعصب مذموم . وضره اكثر من نفعه لان ضره عام ونفعه خاص . ونفعه الخاص نفسه لا يدوم

التعصب الديني
ثلاث آفات له

هذا من حيث التعصب الجنسي . واما « التعصب الديني » فيختلف عن « التعصب الجنسي » اختلافاً عظيماً من عدة وجوه . منها وهو اهمها ان كل امة هي مختلفة المذاهب والاديان وليس في الارض امة واحدة ساكنة في بقعة واحدة وهي على دين واحد . « فالتعصب الجنسي الشديد » اذا وقع في امة فانه يقع من

نفسها على غيرها فهي قد تستفيد منه وتجني نفعاً · واما «التعصب الديني الشديد» فاذا وقع في امة فانه يقع من نفسها على نفسها لتنافر المذاهب التي فيها · وهناك الطامة الكبرى

وبعبارة اخرى نقول ان التعصب الجنسي يصح ان يكون سلكاً لنظام امة لانه مدعاة الى جمعها بعضها الى بعض · واما التعصب الديني فلا يصح ان يكون سلكاً لنظام امة لانه مدعاة الى تفريقها · وفي تفريقها ضعفها وانحطاطها وتداخل الاجنبي في شؤونها

ومن آفات التعصب الديني غير ما ذكر آفة هي شر الآفات لانها تفسد النفوس والقلوب وتشغل الناس عن المصالح والمنافع · فالامة في هذا الزمان لا تكبر ولا تعظم الا بالعمل والجد واستخراج خيرات الارض واثارة النشاط والقوة العملية في النفوس والانصراف الى الصنائع والمتاجر والفنون · وهو عمل يقتضي في الامة ان تستجمع له كل قواها وتنفذ فيه كل نشاطها · وكل المنازعات والمنافسات التي تقوم بشانه انما تزيد هذا النشاط وهذه القوة · فالتعصب الجنسي لا يضر من هذا الوجه بل قد ينفع الا من حيث استياء باقي الامم من هذا التعصب والتشديد على صاحبته عند عقد المعاهدات التجارية · اما التعصب الديني فانه يفسد جو افكار الامة اذ يلهيها بالمجادلات الدينية العقيمة والمناظرات التافهة السقيمة عن العمل لمصالحها ومنافعها · واي شيء كالمجادلات الدينية والمنافسات الملية يثير النفوس ويفني نشاطها سدىً ويشغلها عن كل شغل · ان عند الافرنج رسماً مشهوراً يرمزون به الى حالة كهذه الحالة · وهو رسم اهل بزنطيه (١) يتخاصمون ويتنازعون

(١) هي القسطنطينية قديماً و « الاستانة » اليوم

في خلافاتهم الدينية التافهة بينما ترى محمد الفاتح بجنده الجرار تحت اسوار مدينتهم يشدد عليها الحصر لفتحها . وقد فتحها واستولى عليها ولا بدع فما برحت قوة العمل قاهرة قوة الجدل

ثم نذكر للتعصب الديني شراً عظيماً آخر . وهذا الشر هو قيام دولة الضعفاء والجبناء والكسالى في الامة وتفوّقهم على اهل الذكاء والجد . فكل قاصر ضعيف الهمة قليل الادراك صغير النفس يمكنه ان يتصدر في الامة ويعلو على اهل الذكاء والجد فيها بمجرد دعواه الافراط في التقوى وشدة التمسك بدينه . لان هذا الامر لا يقتضي تعباً ولا نصباً ولا عقلاً ولا ادباً ولا فضة ولا ذهبا . سيادة عظمى تشرى بثمن بخس وهو قليل من الشعوذة . فتصبح الامة التي تسود بها مبادىء التعصب الديني امة الكسالى والمرضى والعجزة والقاصرين لان هؤلاء هم المقربون واما القادرون النافعون الذين لا تطاوعهم نفوسهم على اتيان الصغائر فبعيدون او مبعَدون . هؤلاء يريدون شد الامة الى فوق واولئك يشدونها الى اسفل . ومن نواميس الطبيعة انه اذا استوى جذب جسم من جانبيه بقي الجسم في موضعه الى الأبد

أثرهما في مصر

هذا ما نقوله في التعصب الجنسي والتعصب الديني على وجه الاجمال . وهو يطلق على كل قوم في كل بلد . فلنعد الآن الى مصر لنرى آثارهما فيها

ولو كان غرضنا مس هذا الموضوع مساً بطرف الاصبع لكي نختمه بقولنا لاخواننا المصريين مجاملة وتزلفاً ان لا تعصب في مصر او لو كان غرضنا التحامل عليهم بنسبة التعصب اليهم لما كنا كتبنا في هذا الموضوع الصعب حرفاً واحداً . ولكن مصر تعرف الجامعة كما ان الجامعة تعرفها . وقولنا هنا (مصر) نريد به قراء الجامعة في مصر وهم من نخبة اهل الفضل والوجاهة والادب فيها . فهم يعلمون ان الجامعة لا غرض لها في ما تنشره الا بسط ما تعتقده وتراه صواباً . ولما بلغتنا الى هنا اصداء تلك الجلبة التي ثار غبارها في الصحف الاوروبية

والمصرية جالت في نفسنا امور راينا من الفائدة نشرها دون تزلف ولا تحامل حسب عادتنا. ونحن على ثقة من ان قراء الجامعة في مصر يرضون عن اللهجة التي نخاطبهم بها هنا . لان العقلاء يعلمون ان (صديق الانسان من صدّقه لا من صدّقه) فان الذي يَصدقه انما يهديه خلاصة اخلاص قلبه واما الذي يصدّقه دون ان يَصدقه فقد يكون تصديقه مقروناً بالرياء في اكثر الاحيان

فنقول . ان المراد بالتعصب الذي تتهم به الصحف الاوروبية مصر هو (التعصب الديني) وهي تسميه Fanatisme ومعنى (فناتيزم) عندهم (حماسة شديدة لتغليب دين على دين) فهذا التعريف للكلمة الفرنسوية اشد من التعريف العربي كما تقدم اذ تعريف التعصب في اللغة (كون الانسان شديداً غيوراً في الدين ذاباً عنه) . والفرق بين التعريفين ان التعريف الفرنسوي يجعل المتعصب مهاجماً والتعريف العربي يجعله مدافعاً . ولكن التعريف اللغوي قلما يهمنا عند نسبة الاوروبيين التعصب الى مصر اذ المراد ان نعلم ما يقصدون به من هذا (التعصب) لا ان نعلم تعريفه عندنا او عندهم . فان التعريف العلمي او اللغوي لا يخرج عن كونه كلاماً في كلام والمهم ان نقف على المعنى الذي ينسب اليه ذلك الكلام . فالساسة الذين يهمهم ان تظهر مصر لدى اوروبا والعالم بمظهر التعصب انما يريدون بقولهم هذا المراد

(ان المصريين ثاروا على الاجانب قبل دخول الانكليز الى مصر لتعصبهم في الدين اي لرغبتهم في تغليب دينهم على باقي الاديان وكراهتهم كل من لم يكن منهم . وهم حتى الآن متعصبون اي يكرهون من لم يكن على دينهم . فاذا سُلطوا عليه او اذا القيت اليهم مقاليد انفسهم جاروا وشطوا . فهم غير اهل لان يحكموا انفسهم بانفسهم)

هذه التهمة قد يكون فيها شيء صحيح من وجه ولكنها فاسدة من وجوه . فالجواب عليها يحتمل وجهين متناقضين . سلباً وايجاباً

لقد عشنا في مصر نحو عشر سنوات خبرنا في اثنائها اشياءها واشخاصها حق الخبرة . فقد سكنا في حقولها النضيرة ومزارعها القطنية الجميلة وراينا الفلاح المصري المسكين محنياً الى الارض امه الحنون يعمل في الحرث والزرع طول النهار بلباس رث وقوت لا يتجاوز البصل وخبز الذرة . فهو يعرق ويتعب ويضنى وراء جاموسه لكي يجمع غيره من عرق جبينه الثروات الطائلة . تغيب عليه الشمس وهو وامرأته وراء المحراث فيوقف العمل لان الله اطفأ مصباحه ثم يتوضأ ويفرش عباءته فيصلي عليها ثم يأخذ خبزه وبصله ومشه ويأكل

مع امرأته وبعد ذلك يرقد حيث اكل الى الصباح لاستئناف عمله . فكانه صنف من الناس تنبته الارض فيبقى لاصقاً بها . ولا شبيه له الا بعض فلاحي فرنسا في عصر لابرويير حيث وصفهم يقول : اقتربت من الحقول فرايت فيها حيوانات تسعى . هي سوداء تدب في عملها على الاربع . ولم ادر انهم بشر مثلنا الا حين رايتهم يقفون منتصبين وشاهدت وجوههم . وقد ذهب وصفه هذا مثلاً

ان عدد سكان مصر عشرة ملايين نفس . وربما كان منهم ثمانية ملايين من هؤلاء الفلاحين السذج المساكين الذين مرت على رؤوسهم جميع زوابع التاريخ من زمن الفراعنة حتى اليوم فاجترفت كل شيء في سبيلها وابقتهم هم يتوارثون خلفاً عن سلف حالتهم وصبرهم ورضاهم بالقليل وخضوعهم للهيئة الحاكمة عادلة كانت او ظالمة . وما اهالي دنشواي الذين اعتدوا على الضباط الانكليز وفتحوا على مصر هذا الباب الا من اولئك الفلاحين

فالآن اذا سألنا هل هؤلاء السذج يفهمون (التعصب الجنسي) نرى الجواب بيناً بنفسه . فان هؤلاء السذج لا يملكون شيئاً من ملاذ الحياة العقلية والادبية . وكل حياتهم تعب مادي وشقاء . فالدين عندهم هو عبارة عن حياتهم العقلية والادبية وكنز نفوسهم ولذة قلوبهم . فاذا قلت لهم قدموا عليه « العصبية الجنسية » او « العصبية الوطنية » لم يفهموا شيئاً من قولك . فاذا كان تعصبهم « دينياً » لا « جنسياً » فهم معذورون للسذاجة والفطرة . والذنب ذنب الهيئة الحاكمة وكبرائهم الذين لا يرفعونهم من وهدتهم

كنت منذ ثماني سنوات في حديقة الازبكية في القاهرة واذا بفلاح من الريف جلس بجانبي . فسالته ما رايك بالانكليز يا عم . فهز راسه وقال « وماذا عمل لنا الانكليز من الشر يا خويي . هم فتحوا لنا الترع وساووا الزراعة ودبروا الفلوس . فما عملوا الا كل خير » وكانت الضوضاء يومئذٍ شديدة في مصر بسبب منع الحج وجريدة المؤيد تقيم مصر وتقعدها بصرخات عالية كادت تؤدي الى اقفالها لولا مداخلة الجناب العالي يومئذٍ . فلما حادثت فلاحي المذكور بشان الحج اشتد وقال والله اننا نجتمع الوفاً ونذهب الى الحج بالقوة رغماً عنهم -- ومعنى هذا للمتأمل فيه ان هذا الرجل الساذج لا يبالي ان يذهب وطنه ولكنه يغضب ويثور اذا منع من الحج

وهذه الحالة شاملة جميع الشعوب التي تتركها حكوماتها في ظلمات السذاجة ولا تخلو منها روسيا وفرنسا وانكلترا نفسها . ولا نزال نذكر ثورة اهل ولاية بريطانيا الفرنسوية على الحكومة منذ سنتين بسبب مسائل دينية تافهة وجهر بعض غلاتهم بالرغبة في الانفصال عن فرنسا من اجلها

ولكن هل هذه مصر كلها ؟ كلا ثم كلا . وهنا الجواب السلبي الذي اشرنا اليه آنفاً. ففي مصر اليوم طبقات مرتقية تفهم « العصبية الجنسية والوطنية » حق الفهم وتريد تقديمها على العصبية الدينية . فيها علماء وقضاة ومحامون وكتاب واطباء وتجار وادباء وطلبة علم وكلهم متحمسون للاصلاحات المدنية الاجتماعيه تحمساً شديداً . واذا قيل انك لا تسمع في صحفهم الا الدعوة الى « العصبية الدينية » فالجواب يقتضي تحليلاً . فنقول ان لذلك سببين « الاول » انزواء اكثر اهل الفضل والعقل في الزوايا لانفتهم الاشتغال بالسياسة اليوم او سجنهم انفسهم في مناصب عليا لا تسمح لهم باسماع الناس اصواتهم في الصحف . وان محاكم القاهرة العليا تضم منهم بضعة يحق لمصر ان تفتخر بهم حقيقة . ولسنا نذكر هنا العلامة المرحوم الشيخ محمد عبده لان وظيفته والمهمة التي جعلها لنفسه دينية محضة فلا ينتظر منه رحمه الله ان يعمل اكثر مما عمل لمبداء العصبية الوطنية . . والسبب الثاني « ان الذين يدعون في الصحف الى « العصبية الدينية » اكثرهم ونريد بهم الذين يديرون الحركة من مبدئها يكتبون ما يكتبون ولا غرض لهم غير انشاء راي عام ديني يقدرون على تحريكه وادارته حينما يشاءون لاستخدامه في السياسة . اي انهم يحاولون جمع « العصبية الدينية » وحصرها في منتهى الشدة لاستعمالها آلة لخدمة « العصبية الجنسية » حين الحاجة اليها . والذي ابتدع هذه السياسة هو جلالة السلطان بعد يأسه من عدالة اوروبا يوم اخذت اليونان ثساليا وفرنسا تونس وانكلترا مصر (١) فاكثر الذين يكتبون في الصحف المصرية في الاسلام والجامعة الاسلامية والعصبية الاسلامية يكتبون وهم مقتنعون بعكس ما يكتبون . والذين يمثلون الرأي العام المصري الصحيح منهم قليلون . وكم من مرة كنا نحادث بعض الرصفاء في مسائل كهذه المسائل فكانوا من راينا في كل وجوهها ثم نراهم عند الكتابة يكتبون عكسها . فالجامعة الاسلامية ليست اليوم في مصر آلة دينية كما تفهمها جرائد اوروبا بل هي آلة سياسية . ولكن من سوء الحظ ان الشعب لا يفهم ذلك فيزداد تمسكاً بمبادئ السذاجة

وقد قرأنا في جرائد مصر ان بعضاً من اكابر المصريين الفوا شركة لانشاء جريدة جديدة كبرى . فالجامعة تتمنى ان يكون بدء تاريخ هذه الرصيفة الجليلة الجديدة بدء عصر جديد لمصر ينزل فيه اهل العقل والفضل من ابنائها الى ميدان العمل لا يقاف تيار في الافكار وانشاء تيار آخر فيه مصلحة جميع سكان مصر خصوصاً مصر نفسها (ستأتي البقية)

(١) راجع كتاب « مستقبل تركيا » للسياسي الفرنسوي غبريل شارم وهذا رايه